من الحوادث الأدبية

روزفلت فى مصر

للاستاذ محمد سيد كيلانى

فى شهر مارس سنة ١٩١٠ جاء مستر روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة سابقا إلى مصر عن طريق السودان بعد أن أمضى فترة فى الصيد فى غابات السودان . ونزل فى أسوان والأقصر وزار ما فيهما من آثار .

وقد أراد المحتلون أن ينتفعوا بنفوذ روزفلت الأدبى فى تثبيط همم المصريين وإضعاف عزائمهم حتى يرضوا بالاحتلال وينصرفوا عن طلب الاستقلال . فأوعزوا إليه أن يخطب مطريا الحكم البريطانى محبذا بقاءه . فقام فى الخرطوم وألقى خطبة أشاد فيها بمزايا هذا الحكم وفوائده؛ كما أشاد بمزايا الدين المسيحى وفضائله وتواترت الأنباء بهذا إلى أذهان المصريين فثار الرأى العام بما سمع . وقد نظم المرحوم أحمد شوقى قصيدة فريدة هى قصيدة « أنس الوجود » وأهداها إلى الرئيس الأمريكى مرفقة بخطاب جاء فيه « ... وأنت اليوم تمشى فوق مهد الأعصر الأول، ولحد قواهر الدول . أرض اتخذها الإسكندر عرينا ، وملأها على أهلها قيصر سفينا ، وخلف ابن العاص فيها لسانا وجنسا ودينا ، فكان أعظم المستعمرين حقيقة وأكثرهم يقينا . وهو الذى لم يعلم عليه أنه بغى أو ظلم أو سفك الدم أو نهى أو أمر إلا بين الرجاء والحذر، من عدل عمر ، الذى تنبيك عنه السير .

« قمت أيها الضيف العظيم فى السودان خطيبا فأنصت العصر ، والتفتت مصر ، وأقبل أهلها بعضهم على بعض يتساءلون : كيف خالف الرئيس سنة الأحرار من قادة الأمم وسواس الممالك أمثاله فطارد الثعور وهو يهرب، والوجدان وهو يثب، والحياة وهى تدب فى هذا الشعب . ومن حرمة العواطف السامية ألا تطارد كأنها وحوش ضارية، على صحراء أو بادية؛ كما طارت السباع بالأمس نقما من طبا ثمها الجافية ... الخ » وقد وفق شوقى فى هذه القصيدة توفيقا كبيرا وأجاد إجادة تامة ولا ريب فى أن عاطفته القوية وإحساسه المتدفق وشعوره الفياض كان حافزا له على التجويد . واهتم الشاعر فى هذه القصيدة بالتنويه بمجد مصر القديم وحضاراتها ومدنيتها وما كان فيها من العلوم وما تركه الأقدمون من العمران . وقد كان قوى الأسلوب متين العبارة . وأراد الشاعر أن يكسب عطف هذا الرجل الأمريكى حتى ينتصر لمصر والمصريين ويعينهم بنفوذه الأدبى فى قضيتهم الكبرى ؛ قضية الاستقلال .

ومن قوله مخاطباً روزفلت :

يا إمام الشعوب بالأمس واليو ... م ستعلى من الثناء فترضى
كن ظهيراً لأهلها ونصيرا ... وابذل النصح بعد ذلك محضا
قل لقوم على الولايات أبقى ... ظ إذا ذاقت البرية غمضا
شيمة النيل أن بنى وعجيب ... أحرجوه فضيع العهد نقضا

لم يشأ شوقى أن يلوم روزفلت أو يعتب عليه على ما تفوه به فى الخرطوم من مدح للانجليز وإطراء لهم . وذلك لأنه كان يطمع فى أن يضمه إلى جانب المصريين فرأى أن يخاطبه فى أدب جم ورفق ولين، وأن يستميله إلى ناحية مصر بالتغنى بهذه الآثار التى شاهدها روزفلت فى الصعيد، وعما تدل عليه من عبقرية ونبوغ . وشعب كهذا جدير بالتقدير والاحترام، خليق بالحرية والاستقلال

أما حافظ وغيره من الشعراء فإنهم قابلوا روزفلت بالعتاب المر واللوم الشديد والتقريع والتعنيف ، وقدموا له الأدلة والحجج على فساد آرائه وخطأ أفكاره وبعده عن جادة الحق .

أنظر إلى حافظ حين يقول :

يا نصير الضعيف مالك تطرى ... خطة القوم بعد ذاك النكير
لم تطيقوا جوارهم بل أقمتم ... فى حماكم من دونهم ألف سور
أنت تطريهم وتثنى عليهم ... نائما آمنا وراء البحور
ليت شعرى أكنت تدعو إليهم ... يوم كانوا على تخوم الثغور
يوم كانوا قذى بعين (نيويور ... ك) وداء مستحكما فى الصدور
يوم نادى واشنجتون قلبا ... من الغيل كل ليث هصور
يوم سجلتمو على صفحات الد ... هر تاريخ مجدكم بالنور
ووثبتم إلى الحياة وثوبا ... ونفضتم عنكم تراب القبور

إنمـــا النيل والسيسبي صنوا ن هما حليتان للعمور
وعجيب يفوز هـــذا بإطلا ق وهـــذا في ذلة الدأسور

هكذا خاطب حافظ روزفلت . والشاعر في هذه الأبيات يرسل القول من أعماق فؤاده ممتزجا بدمائه . ويقول له إنكم لم تصبروا على حكم الإنجليز ولم تطيقوا بقاءهم في بلادكم بل قمتم عليهم وأجليتموهم عن ديارکم وطاردتموهم حتى خلت منهم أقطاركم ونلتم حريتكم واستقلالكم . ثم أخذ يسائله قائلا : هل كنت تمدح الإنجليز وتقفني بفضائلهم يوم كانوا مرابطين في ثغوركم ؟ هل كنت تمدحهم يوم قاموا شنجتون يدعو إلى كفاحهم وجهادهم ؟ يوم أن كانوا قذى في عين نيويورك وغصة في حلقها ؟ لا شك في أن روزفلت لا يجيب عن هذا السؤال لأنه لم يرد خدمة الحق؛ بل أباح له ضميره الميت أن يحكم على شعب مجيد بالذل والهوان في سبيل منفعته الخاصة .

لقد دعي الرجل إلى الخطابة في الجامعة المصرية فألقى خطبة طويلة ردد فيها آراء المحتلين في عدم صلاحية المصريين للحكم الدستوري والاستقلال ومما جاء فيها قوله « ... فإنك لا تجعل الإنسان متربياً ومتعلماً تعلماً حقيقيا بمجرد إعطائه دروساً معينة، وكذلك لا تجعل أمة صالحة لأن تحكم نفسها بنفسها بمجرد إعطائها دستوراً على الورق ؛ بل تربية الفرد وتعليمه حتى يصير صالحاً للعمل في العالم تستغرقان أعواماً طويلة . وهكذا تربية الأمة وإعدادها حتى تنجح في قضاء واجبات الحكومة الذاتية لا يتأتى في عشر سنوات أو عشرين بل يلزمها أجيال متعاقبة . » ثم قال « ... فإن بعض الدجالين الجهلاء يزعمون أن مجرد إعطاء دستور على الورق ولا سيما إذا جعلت له مقدمة ترن ألفاظها في الآذان يجعل الأمة قادرة على الحكم الذاتي . وليس الأمر كذلك أبداً ... الخ »

ظن روزفلت أنه قادر بمثل هذه الأقوال على القضاء على الروح الوطني عند المصريين وإخماد أنفاسهم وتدمير عزائمهم فيقبلون حياة العبودية والاحتلال راضين مطمئنين . ولكن خيب الله ظنه وأخزاه فلم يفلح في ما سعى إليه بل باء بفشل عظيم. ولم يكن الشعب المصري من الغفلة والسذاجة بحيث ظن ، بل كان يقظاً حساساً . وعلى هذا فإن خطبة روزفلت أثارت حفيظة المصريين أجمعين وأشعلت في قلوبهم نيران الحقد والبغض للمستعمرين وأنصارهم . فكأن الرئيس الأمريكي والحالة هذه قد أساء إلى المحتلين وأثار في وجوههم زوبعة عنيفة . انظر إلى ما قالته صحيفة الأهرام في عدد ٣١ مارس سنة ١٩١٠ وهو « ما خطر لنا في خاطر أن المستر روزفلت يمر بهذه البلاد مرور العاصفة تترك وراءها دويا كبيراً ، أو مرور الصاعقة تهز أعصاب البلاد هزا عنيفاً . بل لم يخطر لنا بخاطر أن تكون زيارته مثاراً يثير كوامن الأقلام ومحضاً تحرك به نيران الأحقاد فنسمع بعد رحيله عنا من فرقنا كلاماً طالما أنكره العقلاء وتبرأ منه ومن إثارة زوابعه الفهماء . ولكن أبى روزفلت إلا أن يقول كلمة هاجت من الناس شجوناً وحركت سكوناً وأبرزت كامناً . . . الخ » فمن هذه الفقرة تدرك مقدار ما أثارته خطبته من آثار سيئة في النفوس .

وقد ثار الكتاب والخطباء والشعراء للرد على الرئيس الأمريكي فامتلأت الصحف بالمقالات الطويلة في هذا الموضوع ، والظاهر أن الكتاب وجدوا فرصة للدعوة إلى الحكم الدستوري فكتبوا وأطنبوا شارحين الخطأ العظيم والضلال الكبير الذي وقع فيه روزفلت عامداً متعمداً . وهكذا ارتدت سهام المستعمرين إلى نحورهم وثبت المصريون على حقهم بل ازدادوا قوة وحماسة في المطالبة بالحكم الدستوري والاستقلال .

ولو عقل المستعمرون لما قاوموا هذه الرغبة ولما وقفوا في وجه تلك النهضة ؛ ولكن شهوة الاستعمار أعمتهم وأشاتهم عن سواء السبيل . وكيف يعقل أن يسكت الشعب المصري على الذل والهوان في الوقت الذي تتمتع فيه التركية وأمم البلقان بالحرية والدستور وهم أقل من المصريين ثقافة وحضارة ؟ لقد اشتد تظلم المصريين إلى الدستور منذ اليوم الذي ظفر الأتراك به . قلنا إن الشعراء ساهموا في الحملة على روزفلت . فمن ذلك قول أحمد نسيم

سدد سهامك عند كل خطاب لست الذي ترجى ليوم مصاب
أمبشر يهدى العباد لدينه أم ضيغم مذق اللسان محابي
برح الخفاء وبان روزفلت لنا من أبغض الأعداء لا الأحباب
برح الخفاء فلا تكونوا أمة تدمى الدخيل بعضها بالناب

إياكم أن تركنوا لزخارف ... تثنيكم عن مجلس النواب
أنى أرى الدستور يخطر بينكم ... لا تتركوه فإنه بالبـــاب

وقال آخر

روزفلت آلمت العواطف منكرا ... كرم الوفادة مرضيا إسكندرا
ما هكذا الرجل العظيم تميله ... عن مبدإ الأحرار أغراض الورى
ما أصدقوك رواية عن حالنا ... بل كان ذاك القول إفكا مفترى
هلا سبرت شعورنا من قبل ما ... تلقى الخطابة بيننا مستهترا
أنسيت تاريخا لكم ولغيركم ... شغلت به تلك المظالم أعصرا
حكم النفوس على النفوس مصيبة ... عظمى أيدحها الرئيس مكررا
حكم ضميرك يا رئيس وبعدها ... فاحكم بما يرضاه عنك مسطرا

وقال الأستاذ على الغاياتى

لعمرك لست بالرجل الهمـام ... إذا عد الهمام من الكرام
كرام الناس أصدقهم حديثا ... وأبعد عن أكاذيب اللئام
فذلك لم تقم بالنيل إلا ... لتسمعنا أباطيل الكلام
لقد كنتم لأهل الأرض نهبا ... وكانت أرضكم أرض اغتنام
وكان الإنجليز لكم رؤوسا ... فهل رفعوا لكم هام احترام

وهكذا أفرغ الشعراء غضبهم وسخطهم على السائح الأمريكى الذى جر على نفسه ذلك التغضب . والشعر الذى قيل فى هذا الصدد شعر عاطفى صادق كل الصدق . ولم يكتف أحمد نسيم بلوم الرئيس روزفلت وتعنيفه ، بل اتجه إلى المصريين وحثهم على احتقار أقوال روزفلت وازدرائها وحرضهم على مواصلة الجهاد والكفاح فى سبيل الدستور الذى آن أوانه واقتربت ساعته كما زعم فى شعره. وهذه روح طيبة تدل على سمو صاحبها وعلى أنه لا يعرف اليأس ولا القنوط .

أما أبيات الغاياتى فإنها امتازت بالشدة والقسوة . فهى هجاء لاذع وطعن فاحش ، ولكنه لا يقاس إلى جانب طعن روزفلت فى المصريين . فهو مثلا فى قوله « ... فإن بعض الدجالين الجهلاء يزعمون أن مجرد إعطاء دستور ... الخ » عنى رجال الحزب الوطنى الذين كانوا يلحون فى طلب الدستور ليل نهار . والأستاذ الغاياتى كان وما زال من رجال الحزب الوطنى . فلا لوم عليه إذا قابل وقاحة روزفلت بما تستحق ، وجزاء سيئة سيئة مثلها.

وقال إسماعيل صبرى :

إذا سيق نبز إلى مسمع ... تمسر خالصه فى الرغام
وإن ساق روزفلت ما دونه ... إليه تنحى كلام الكرام
صدقتم وأخطأ من لم يقل ... كلام الرئيس رئيس الكلام

وقد استهجن الناس هذه الأبيات وأطاقوا ألسنتهم فى قائلها بألفاظ نابية ، فاضطر إسماعيل صبرى إلى إعادة نشرها ثم علق عليها بكلمة جاء فيها : « ... وما البيت الثالث الذى هو مظنة المدح والإطراء إلا تهكم على من يقدرون الكلام على حسب مقدار قائله . » ولكن الذى لاشك فيه أن إسماعيل صبرى لم يكن موفقاً فى هذه الأبيات .

وقد تألفت مظاهرة وسارت إلى فندق شبرد الذى نزل فيه روزفلت وأخذت تهتف ضده فاضطر إلى الرحيل عن البلاد ولما وصل إلى الإسكندرية قابلته الجماهير بالشتائم والسباب .

ومن الغريب أن الجامعة المصرية بالرغم من شعور السخط الذى سببه روزفلت بخطبته قد منحته الدكتوراه الفخرية متحدية بذلك الرأى العام مع أن مركزها لم يكن ليسمح لها بذلك . إذ لم تكن جامعة بالمعنى الصحيح ، بل كانت قاعة صغيرة لإلقاء محاضرات فى بعض المواد . وعلاوة على ذلك فإن حداثة عهدها لا تخول لها حق هذا المنح .

وقد كادت هذه الحادثة تصرف الرأى العام عن الجامعة والقائمين عليها ووجه إلى رجالها نقد عنيف وطعن شديد ؛ كما أن بعض الكتاب حثوا الجمهور على عدم التبرع للجامعة حتى تسحب درجة الدكتوراه الفخرية التى منحتها للرئيس روزفلت وكانت أول درجة فخرية منحتها تلك الجامعة الناشئة .

ولم يكتف روزفلت بما ساقه فى مصر من مطاعن فى أهلها، بل رقف فى دار البلدية بلندن وألقى خطبة ملأها بالشتائم والسباب على المصريين . فانبرى له الكاتب الإنجليزى المرحوم برنارد شو وصفعه بمقال عنيف جاء فيه « ... فلئن كان من واجبنا نحن الإنجليز أن نحكم مصر لمصلحة مصر بدون أخذ رأى أهلها المصريين كما يقول مستر روزفلت لقد كان من واجبنا العظيم أن نحكم أمريكا بنفس نصيحة مستر روزفلت . »

قلنا إن شعور الوطنى فى مصر فى ذلك الوقت كان ينذر بالانفجار عن ثورة ضد الاحتلال والمحتلين. وقد ظهر ذلك واضحاً حينما رفض المصريون أجمعون المشروع الذى عرضته شركة قناة السويس لمد أجل امتيازها .

وهذه الفترة من تاريخ مصر حافلة بقصائد الشعر السياسى الذى كانت تغذيه عاطفة ملتهبة وشعور متدفق

محمد سيد كيلانى